أول تقرير عن معاودة الحفر في رأس شمرا

للأستاذ كلود شيفر

(خلاصة عن المقال المنشور في القسم الغربي من المجلة)

توقفت حفريات رأس شمرا خلال الحرب العالمية الثانية ، وتولت مديرية الآثار العامة المحافظة على منطقتها الأثرية . ولما حلّ السلام ، وافقت السلطات السورية على إعادة تشييد منازل البعثة الأثرية وإصلاحها . واستطعت أن أحصل من هذه السلطات ، خلال مواسم سنوات (١٩٤٧ — ١٩٤٩) على رخص للسبر والتنقيب الموقت ، مما ساعدني على اتمام معلوماتي في بعض النواحي العلمية ، ومكنني من إنهاء كتابيّ : ١) الطبقات الأرضية المقارنة وتسلسل تاريخ آسيا الغربية ٢) والجزء الثاني من مجموعة (أوغاريتكا) .

وقد درست في الكتاب الأول ، المعلومات الأثرية التي توفرت للعلماء خلال خمسين سنة مضت ، على أثر تحرياتهم في سورية ، ولبنان ، وفلسطين ، وآسيا الصغرى ، وقبرص وإيران ، والقوقاز . فاتضح لي التطور الأثري لهذه البلاد ، وتاريخ مدنياتها الكبرى منذ نهاية الألف الثالثة قبل المسيح ، حتى نهاية الألف الثانية . كما ظهر لي أن حفريات رأس شمرا والطبقات الأثرية السورية على وجه العموم ، أصبحت من الناحية العلمية ، القاعدة المتينة لكل الأبحاث الأثرية المتعلقة بالتاريخ القديم لبلاد الشرق الأدنى ، وعلاقاتها بأوربا المشرفة على البحر المتوسط خلال الألف الثانية قبل الميلاد .

وعملت في كتابي (أوغاريتكا) الثاني على دراسة إناءين ذهبيين ، كنت عثرت عليهما (سنة ١٩٣٣) في رأس شمرا . وهما أقدم إناءين رسمت عليهما حوادث تاريخية . وعهدهما من أول القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهما يدلان على براعة الصناع السوريين في هذا العصر . لأن أسلوب صنعهما طريف على الرغم من تأثره بالفنون المصرية والايجية ؛ وهو يعطينا فكرة واضحة عن الفاعلية الصناعية في أوغاريت ، وعن مكانتها بين صناعات العالم القديم .

ثم درست في هذا الكتاب قضية ثانية لا تهم المستشرقين فقط ، بل تهم أيضاً المشتغلين بعلوم ماقبل التاريخ في أوربا . وهي أن رأس شمرا وسورية الشمالية كانتا في أول الألف الثانية قبل الميلاد مركزاً من مراكز انتشار سكان خبيرين بالمعادن وعارفين بطرق إذابتها ، وكيفية مزجها . وكانوا يحملون في أعناقهم أطواقاً برونزية ثقيلة ، لكل منها عقفتان . وقد ابتكروا عدداً من الأدوات والأسلحة النحاسية والبرونزية . ويمكننا تتبع آثارهم في حماه وجبيل ، وفي فلسطين جنوباً حتى مصر . وهناك استخدموا خبرتهم المعدنية في ورشات الفراعنة لا سيما في اللاهون حيث بنى الفرعون سيزوستريس الثاني نحو (١٩٠٠ — ١٨٨٨ ق . م) هرمه ومدافنه الملكية بمساعدة فنانين وصناع سوريين .

وسمحت لنا المكتشفات الجديدة في الطبقات العميقة للسوية الثانية من رأس شمرا ، أن نقيم علاقات بين حملة الأطواق في سورية ، وحملة الأطواق في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا والألزاس وسويسرا . إذ أنه وجد في طبقات هذه البلاد التابعة لأول عهد البرونز ، أشياء أثرية تشبه الأشياء الأثرية التي عثر عليها في مواضع حملة الأطواق السوريين . فاتضح أن نقطة ابتداء هجرة حملة الأطواق يجب أن يبحث عنها في آسيا الغربية وخاصة في سورية ، وأن وصول هؤلاء السكان الى أوربا اتفق خاصة مع تطور مفاجيء وسريع للتعدين وانتاج الأدوات البرونزية ، وأنهم نشروا نماذج متعددة من الأسلحة والحلي الشرقية ولا سيما الأطواق ذات النهايتين المعقوفتين . وأكبر الظن أن ذلك جرى في السنوات (١٩٥٠ — ١٨٥٠ ق . م) وهذا ينسجم مع ما ذهب اليه العلماء أمثال مونتيلوس ، وديشيليت ، وفورير من قبل .

وخلاصة القول إن حملة الأطواق بعدما قاموا بثورة صناعية في سورية وفي البلاد التي تجاورها ، انتشروا في أقطار البحر المتوسط وفي مناطق أوربا التي كان يسكنها آنذاك عروق لا تعرف إلا استخدام الأدوات الحجرية ، فنشروا بينهم اختراعاتهم الجديدة وأطلعوهم على أسرار البرونز . فالفضل بنقل المعارف الصناعية الى الغرب ، الذي نتج عنه ابتداء مرحلة من أكبر مراحل تطور الفن الانساني (هي عهد المعادن الذي ما زلنا نعيش فيه) يعود الى الصناع المهرة السوريين المعروفين لدى المؤرخين باسم الفينيقيين كما يسميهم الاغريقيون .

واتضحت من أعمال السبر المذكورة معلومات أخرى ، منها أن موقع قصر أوغاريت تعين تماماً . فبعد أن يمر المرء من باب القلعة الأساسي ويجتاز دهليزاً طويلاً ، يصل الى مدخل القصر حيث توجد فسحة مبلطة بأحجار جصية . ويقوم أمام هذا المدخل رواق واسع له درجات واطئة يستطيع الفرسان اجتيازها بسهولة . وفي وسط هذا الرواق ممر مركزي بين

عمودين من الخشب لكل منهما قطر يقرب من المتر . وهذا الممر محفوظ لرواح وغدو ملك المدينة يحيط به من الجانبين ممران مخصصان للراجلين من سكان القصر .

وفي الرواق مصاطب حجرية وبئر . وهناك كان يستريح الزائرون ويطعمون قبل أن يدخلوا إلى حضرة الملك . وبعد أن يجتاز هؤلاء باباً يصبحون في ردهة ، ثم في قاعة كبيرة لها أبواب عديدة ينفذ منها الى منازل الملك الخاصة ، أو إلى قاعات الاستقبال . ونحن لم نكشف بعد عن هذه المنازل والقاعات بصورة تامة . غير أن ما توفر لدينا عن أبعادها وتنظيماتها وجمال بنائها ، يدلنا على أن هذا القصر الملكي أوسع وأغنى قصر وجد في الشرق الأدنى ، إذا استثنينا قصور بلاد الرافدين ومصر . ويلاحظ فيه أن مدافن أصحابه تقع تحت حجراته . ويبلغ عدد هذه المدافن أربعة ، وهي مبنية من الحجر المنحوت . وقد نهبت محتوياتها ، ولم يبق فيها إلا بعض الأواني من الألباستر أو الأواني الفخارية الملونة . ويدلنا على غنى ما فقد منها بعض قطع الأثاث المطلية بالذهب واللآلىء الذهبية أو الفضية أو من معدن الالكتروم التي التقطناها والتي انتثرت بين الأنقاض واختفت عن عيون من نهبها في الزمن القديم .

وكانت توجد في هذا القصر السجلات الادارية لمملكة أوغاريت التي تحوي مقادير الضرائب والوجائب العينية المفروضة على السكان ، وتواريخ دخولها وكيفية خروجها من الخزينة ، وكذلك السجلات الديبلوماسية والمراسلات . وكانت كلها محفوظة في الجناح الشمالي من القصر ، ولا يمكن الوصول الى هذا الجناح إلا عن طريق حجرة واحدة ، يقع بابها الى جانب الباب الموصل الى قاعات الاستقبال . والى جانب هذه الحجرة حجرة ثانية عثر في أرضها على رماح برونزية دلت على أن الجند كانوا يقيمون فيها لحماية القصر . ويتألف جناح السجلات من قاعة واسعة كان يجلس فيها أمين السر ، ومن ثلاث حجرات ضيقة بدون نوافذ ولها مدخل واحد . وهنا كانت ترصف الوثائق المكتوبة وتحفظ . وهذه الوثائق مكتوبة باللغات المسمارية السومرية والبابلية والحورية ، والأوغاريتية التي كانت مستعملة قبل اللغة الفينيقية ، وقريبة من الكنعانية ، والتي انحدرت منها لغتا الفينيقيين والعبرانيين وتدلنا كل الدلائل على أنه كانت توجد مدرسة لتعليم الكتاب ، مرتبطة بمنظمة السجلات .

ووجدنا في قاعة أمانة السر خلال أعمال سنة ١٩٤٨ ، الوثيقة الثمينة التي انتشرت أخبارها في كل أقطار العالم والتي عرفت باسم (أبجدية رأس شمرا) وهي كما يعلم أقدم أبجدية معروفة إلى اليوم . وعهدها القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وقد نقشها على لوح صغير أحد الكتاب لتكون نموذجاً يحتذيه الكتبة المبتدئون . وفيها ثلاثون حرفاً تتتابع كما تتتابع حروف الأبجدية الفينيقية

الكلاسيكية ، وحسب النظام الذي اتخذه فيما بعد العبرانيون والأغريقيون ، والذي اتخذناه في ألفبائنا المعاصرة .

وقد ذكر المسيو شارل فيروللو : « إن ابتكار الأبجدية هو أدهش ابتكار انساني . لأنه نشأ عنه نظام الكتابة المبسط الذي يستطيع الطفل أن يتعلمه دون مشقة . وكان تاماً منذ ذلك الوقت ، بحيث أنه لم يتغير فيه شيء أساسي ، لهذا فانه حظي بمستقبل زاهر واتخذته شعوب الأرض كلها ماعدا الصينيين ولم يكن أثر اليونانيين فيه إلا إضافة الأحرف الصوتية ، التي كانت ضرورية للغتهم على حين أنها لم تكن ضرورية في اللغات السامية كالفينيقية والعبرية والعربية » .

ويمكننا أن نتساءل في هذه المناسبة أوكان للفكر اليوناني أثر يذكر ، إذا لم تكن لدى اليونانيين ألفباء يثبتون بواسطة حروفها كل ماكتبوه .

وتحدث من قبل الأثري جورج بيرو فقال :

« إن ابتكار الألفباء كان حدثاً مهماً جداً في تاريخ الجنس البشري . وهو أكثر أهمية من ابتكار الطباعة . إذ أن تحليل الكلام وإرجاعه الى عناصره الأولية يحتاجان الى عمل فكري عظيم أكبر من العمل الذي لزم لصب الحروف المتحركة ، وجعلها على الآلة الطابعة » .

ونحن لا نعرف التاريخ الحقيقي أو التقريبي لهذا الابتكار العظيم . كما لا نعرف اسم المبتكر غير أننا نعرف اليوم أنه كان فينيقياً ، أي سورياً . ويمكننا أن نقول ان شعباً أوجد هذه الأعجوبة يستحق تقديرنا ، ويحق له أن يتبوأ مكانة ممتازة في تاريخ العالم .

* * *

وكانت سنة ١٩٥٠ تاريخاً مهماً لتوسيع حفريات رأس شمرا . لأن الحكومة السورية منحتني رخصة رسمية للتنقيب في هذه المنطقة ، مدتها خمس سنوات ، فصار بامكاني بعد أن توقفت أعمالي أو جرت على نطاق ضيق مدة عشرة أعوام ، أن أنصرف اليها الآن بكليتي ، وأظهر ما تبقى من آثار أوغاريت الدفينة . وقد سارعت الى تأليف بعثة أثرية من ستة أعضاء أجانب وعضوين سوريين وضعتهما مديرية الآثار العامة تحت تصرفي ، وجهزتها بكل مايلزمها من أدوات وأوائل طوبوغرافية وفوتوغرافية وسينمائية ، ومن وسائل النقل السريعة . وبدأت العمل فلم يلبث أن تقاطر علينا كثير من الرجال السوريين الرسميين ، وعلماء الآثار الأجانب ، ووفود المدارس والمعاهد العالية وعدد كبير من المثقفين . وكتبت عن أعمالنا صحف دمشق وحلب واللاذقية المقالات الضافية . مما يدل على اهتمام السوريين في البحث عن تاريخ بلادهم القديم .

ويمكن تلخيص أعمالنا هذه السنة باستكشاف ذروة التل التي بلغتها حفرياتنا قبل الحرب، وإظهار حي في المدينة المنخفضة تحت معبد بعل، ومتابعة إزاحة الأنقاض عن القصر الملكي وسنتكلم عن كل من هذه الأعمال بشيء من التفصيل.

وكانت اكتشافاتنا في ذروة التل مفاجأة لنا. إذ أن المرتفع على شكل مستطيل طوله ١٥٠ متراً وعرضه ١٠٠ متر. ويعود عهد الأنقاض فيه الى الزمن اليوناني. ولا يحسبن أن منشآت هذا العهد كانت موقتة لتأوي الملاحين الذين كانوا يأتون الى رأس شمرا، لمبادلة البضائع المشتراة في المرافيء التراكية — الماكدونية والقبرصية، بالحاصلات المحلية. فقد ظهر أن الأبنية التي عثرنا على بقاياها ذات جدران ضخمة ويتبين من عمارتها جمال الأسلوب الذي انشئت فيه كما ظهر أن أوغاريت كانت مركزاً مهماً يرتاده التجار الأغريقيون في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وذلك استناداً على قطع الفخار الآتيكي والايوني الجميل التي وجدت بين الأنقاض. ويؤكد كل ذلك الرأي القائل ان مرفأ (مينة البيضا) الحالي الذي طغت عليه الرمال، والذي كان مرفأ مدينة أوغاريت القديم، هو المرفأ المعروف باسم (لوكوس ليمن). وأظن أننا اذا تابعنا العمل سنتوصل الى معرفة مدى سعة التجارة الاغريقية القديمة على الساحل السوري.

وكان من نتيجة تحرياتنا في أسفل التل ان عثرنا على حي جديد من أحياء مدينة (أوغاريت) يرجع عهده الى آخر الألف الثالثة قبل الميلاد. ووجدنا تحت هذا الحي آثار لمنشآت السوية الثانية من المدينة التي تعاصر أزمنة الأمبراطورية المصرية المتوسطة. ونحن نعلم من حفرياتنا في السنوات الماضية، أن (أوغاريت) كانت مرتبطة آنئذ شأن كثير من المدن السورية المعاصرة، بعلاقات تجارية مع وادي النيل، وأن السفراء المصريين كانوا يقيمون فيها، وأنه اذا مات أحدهم فيها كان الفرعون الحاكم يسارع الى ارسال نصب حجري لتأمين راحة روحه حسب التقاليد المصرية القديمة، ولا شك أن وجود السفراء المصريين في أوغاريت دليل على وجود جالية مصرية مهمة فيها. وقد عثرنا في أحد مساكنها على تمثال صغير مكسور يمثل رجلا مصرياً قاعداً. ويقول المسيو (فانديه) أمين الجناح المصري في متحف اللوفر، في هذا التمثال، انه تمثال راهب مصري، وربما كان تمثال الراهب الأكبر في هليوبوليس من نهاية السلالة الثانية عشرة في زمن الفرعون امنمحات الثالث (١٨٥٠ — ١٨٠٠ ق.م). ويلاحظ أن تمثال هذا الراهب هو ثاني تمثال لراهب مصري عثرنا عليه في أوغاريت.

وأتمت أعمالنا هذه السنة في حي المدينة المذكور معلوماتنا السابقة. وظهر أن هذا الحي مخصص للصناعات. لأننا وجدنا بين منازله منزلاً كان مسكناً لصائغ يصنع الأطواق من الزجاج والعقيق والعنبر، وينحت الاسطوانات التي عثرنا على عدد منها. ووجدنا في هذا المكان أيضاً، جعران من الخزف الأبيض، وعليه كتابة هيروغليفية (تب — مع — را). وهذا اسم

لفرعون ، أمه الملكة (موتيمويا) التي كانت من أصل ميتاني . وقد تزوج (تب - مع را) ملكة اجنبية جميلة جداً ، تطلق النصوص التاريخية عليها اسم (تي) . ويظن أنها كانت سورية. وقد لعبت دوراً كبيراً في حياة زوجها حتى أن اسمها نقش على الأوابد الرسمية التي أقامها الفرعون أمينوفيس الثالث في كثير من أنحاء مصر ، ولا ريب أن وجود الجعران المذكور في هذه السوية من رأس شمرا وهو من منشأ مصري ، مهم للغاية ، لأنه يسمح بتاريخها تاريخاً صحيحاً .

وأخيراً فان حفرياتنا هذه السنة في قصر أوغاريت الملكي ، كانت أهم أعمالنا . لأننا أتممنا اظهار قاعة العرش . ويبدو أنها كانت غير مسقوفة ، والى جانبها قاعة أخرى مسقوفة كان الملك يستخدمها في أزمنة الأمطار . ووجدنا في القاعة الأولى مصطبة مرتفعة في طرفيها عمودان ، وموقدة مستطيلة مملوءة بالرماد ، ثم كشفنا الأنقاض عن سلسلة من القاعات التي تحيط بهذه القاعة ، والتي يظن أنها كانت مخصصة للأعمال الرسمية .

وعثرنا في هذه القاعات على بعض الأوراق الذهبية التي يستدل منها على غنى محتوياتها . كما عثرنا على بعض حطام من آنية الألباتر . وعلى عينين من مادة شبه حجرية ثمينة كانتا مغروستين في محجري تمثال كبير . وليس يدرى إذا كان هذا التمثال لملك أو لآله . وأنا آمل أن أعثر عليه في احدى قاعات القصر التي لم تحفر بعد .

واكتشفنا أيضاً في آخر أيام عملنا ختما حجرياً لأحد ملوك أوغاريت الذين سكنوا القصر ، وهو منقوش ومكتوب بلغتين .

ووجدنا بين أطلال القصر بعض الألواح الفخارية المكتوبة التامة والناقصة . وقد أعارتنا إياها مديرية الآثار العامة ، وحملناها معنا الى باريس حيث درسها العالم الكبير (شارل فيروللو) مدير أكاديمية الخطوط والآداب الجميلة ، ثم أعدناها الى متحف دمشق من مدة قريبة .

وظهر من هذه الألواح التي يبلغ عددها أحد عشر ، أنه استخدمت فيها لغات كثيرة تدل دلالة واضحة على الصفات الدولية التي كانت لمدينة أوغاريت . إذ أن خمسة منها مكتوبة باللغة الأوغاريتية (وهي لغة الأبجدية) ، وثلاثة مكتوبة باللغة الآكادية (وهي لغة سامي بلاد الرافدين) وواحد باللغة السومرية ، وثلاثة باللغة الخورية (التي كانت غير معروفة تماماً في سورية الشمالية ، وشبيهة بلغة الحثيين ، ولها حروف لم تفك رموزها بعد) .

أما محتويات هذه الألواح ، فقد ذكر المسيو (فيروللو) عنها ، أن أحدها قائمة بأسماء الصناعات في (أوغاريت) ، وأن الباقي قوائم للحسابات ، واتفاقيات ممهورة بالتواقيع ، وتحارير وقواميس استخدمها الكتبة . ويجب ان ننتظر بعض الوقت حتى توضح أسرارها تماماً ، وتعرف جميع ماتحمله من معلومات جديدة عن محيط (أوغاريت) الثقافي والتجاري والدولي .

تلخيص وتعريب الحوليات الأثرية